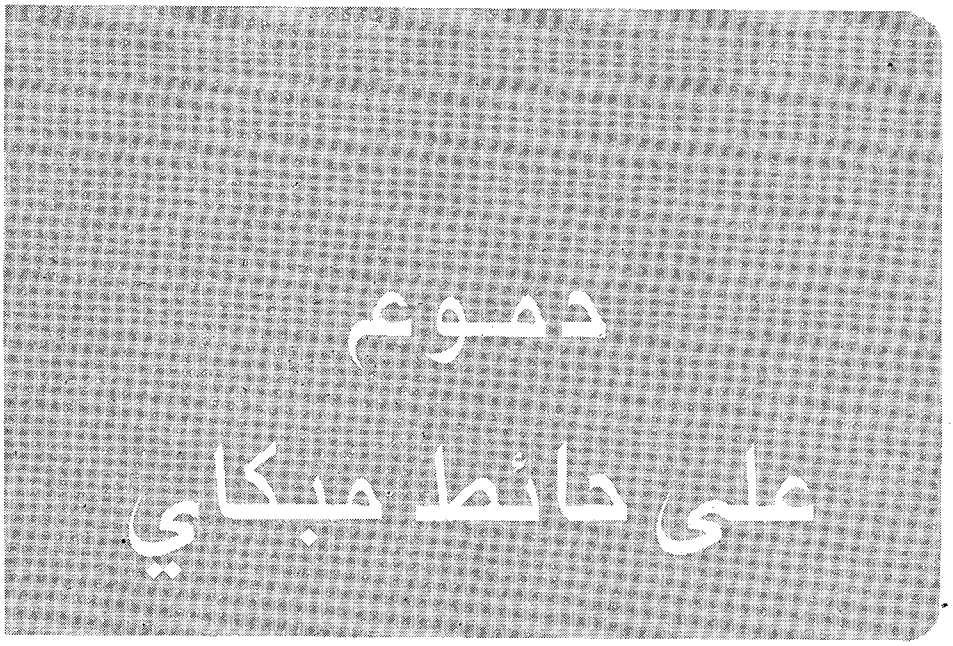

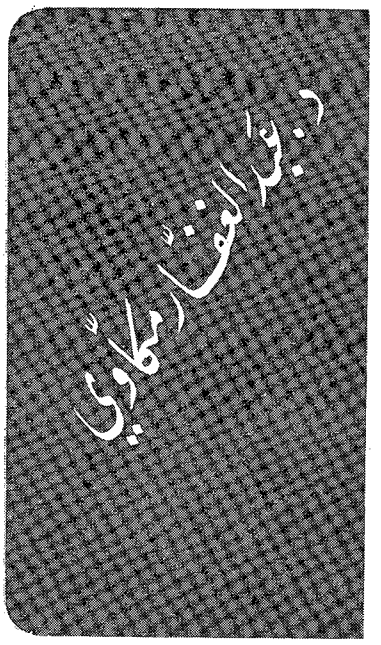

وتنويعات على لحن عظيم

قلت للصوت الصديق الذي دعاني للمشاركة في العيد الفضي لـ « الآداب » (١) : أنت توقظني من نومة أهل الكهف : منذ سنتين وأنا غارق في بحر السواد والاكتئاب . منذ سنين وأنا جثة تأكل وتمشي وتنام وتضحك أحيانا وتشرثر بالحكمة ، تنكر الصوت الخارج منها وتضيع في المتاهات بحثا عن هويتها . طمأنني وألح علي . قلت سأكتب بكائية ، وسأرثي نفسي وشبابي ! سأفعل ما فعل الشاعر العربي الوحيد الذي نعى نفسه — ذكرت اسمه ونسيته الآن ! — قال افعل . قلت أليست قلة ذوق أن أنصب مأتما وسط أفراح العرس ؟ هل كتب علينا أن نبكي طول العمر ؟ وفكرت أن أقيم حائط مبكى عربيا أدعو اليه الاحباب . فكرت أن أهتف بالقراء : دعونا نبكي فنحن أولى من أعدائنا بالبكاء . فدموعنا على الاقل ليست دموع التماسيح ، وذنوبنا في حق أنفسنا أثقل من ذنوبهم عبر التاريخ . لكنني وجدت من الغرور أن أدعو غيري للبكاء ، ولن يغتفر لي أحد أن أسقط ذنوبي عليه ، أو أعمم اتهام الذات — وهو في حد نفسه لا يخلو من الزهو والتبرير — على عشرات من جيلي أنا أول من يحبهم ويقدر انجازاتهم ولا يقارن نفسه حتى بالتراب الذي تدوسه أقدامهم . فلأذرف وحدي دمع العين على حائط مبكاي . وليغفر ثرثرتي القراء . وليتسع صدر «الآداب» لاعتراف جاء بعد خمسة وعشرين عاما ، هي في النهاية عمري المسفوح في دم القلم . وهل كانت طوال هذه السنين الا حائط مبكانا الذي تلقى بالحنان دموعنا ، وفتح صدره لصراخنا واحتجاجنا وتجاربنا الساذجة التي ضاقت بها بلادنا ؟ هل كانت الا المهجر والملجأ للثائر والمتعب والباكي ؟

***

في دمك صوات الندابة القديمة ، شجن المغني الاعمى على القيثار ، أحزان ايزيس الثكلى وأحفادها الذين تترنم بهم الرباب والمواويل . أهو القبر والتابوت الفرعوني الذي لم تستطع الفكاك منه (من عجب انه يتسع للنكات والضحكات ، أن السياح يقصدون طيبة ويغفلون عن القبور والتوابيت الحية !) أهو سجن العمر الموروث ؟ أو كانت كل كتاباتك لطما في مأتمك الازلي — نصبته « معات » الربة لكن نسيته ؟ ها أنت ذا بعد آلاف الصفحات وآلاف الليالي الوحيدة تدرك فجأة انك لم تخرج من التابوت ، لم تستطع أن تزحزحه لان الاجداد صنعوا منه ضلوعك . تفتح عينيك فجأة — بعد فوات العمر — فترى الكتب تحيط بك ، سور شائك غرسته دون أن تدري فحرم عليك بستان الحياة . صورت لك الاوهام ان الحياة كتاب وان الكتاب حياة ، لم تدر الا وقد أصبحت مجلدا يمشي على قدمين ، ينطح صخر الواقع والناس بأحلام ليست أحلامه . عند أول ريح تطايرت الاوراق . عند أول صدمة غرقت كما غرق تراث أجدادك في مياه الفرات والبحر الابيض . فتشت عن طوق النجاة . آه لو كنت كتبته ! كتابك انت لا ما نقلته عن الآخرين . لربما كان

اغاثك أو خفّ اليك كقارب نجـــدة . يا نوح العجوز ! لا عاصم اليوم من الطوفـــان . يا نوح ، لم لـم تصنع سفينتك ؟ دموعك الآن هي الطوفان . فالجأ قبل فـوات الوقت الى حائط مبكاك . لكن حاول أن تبكـي بدموعك أنت . أن تتعرى في الريح أمام المكتبة المحترقة . فلعلك يوما تتطهر . أقم الحائط وابك عليه ..

* * *

« الناس جميعا فرحون ، كأنهم يشاركون في وليمة، كأنهم ذاهبون الى مهرجان الربيع . أنا وحدي أرقد في سكون ، أشبه بطفل صغير ، لم يبتسم مرة في حياته . أنا وحدي متعب ، حزين القلب ، مضيّع كأني بلا هدف ، أنا وحدي غير الآخرين » ــ سطور من كتاب ترجمته منذ سنين (٢) . أهناك شيء يصدق عليك مثلها ؟ الاكتئـاب كان قدرك . أمك المسكينة كانت تسميك مالك الحزين . كنت لا تبكي وتنشج الا في الافراح . أيها السم الاسود ، من الذي خلطك بدمي ؟ أهذا هو الذي قرّبك من الشعر ؟ عرفت مبكرا أنك أفلست فيه . أهذا هو الـــذي جعله يلازمك كظلك فأخذت تنقله الى لغتك ؟ سوّدت عنه مئات الصفحات . تجولت في جزره البعيدة من سافو الـــى اليوت (في العام الماضي منحوك الجائزة ــ فضـــلا منهم وكرما ــ فأغرقتك في مزيد من الاكتئاب :) يا اوديسيوس الخائب . سدى كانت مغامراتك . الحوريات كذبت عليك . الرحلة كانت مضيعة للعمر . الاوذيسة كانت فخـا لك . غنيت أغاني الغير . وعزفت عـلى قيثار لم يصنع لك . هل تعجب بعد وصولك آيتاكا أن تتنكر « بنيلوبه » لك ؟ أن تهتف بك : لا لست الزوج ! والسجادة لم تصنع لك . لم انفق فيها العمر لكي أنتظرك . ها هي ذي تطردك الآن . وعلى مرأى من كل الخطاب الجشعين وأهلك ومربيتك . هل كان الاولى بك أن تبقى في زي الشحاذ ، أن تصدق مع نفسك أنت ؟ طهر نفسك واغسل كفيك . هل يتسع العمر لرحلتك الاخرى ، رحلتك الحقـــة ؟! (موضـوع مسرحية بدأتها ولم تتمها . ما أكثر ما بدأت ! ترى لماذا لم تستمع لصديق عمرك (٣) الذي وجهك لسيف وأبي زيد وعنترة ؟) لم غرّبت ؟ لم تبعد دوما عن نفسك ؟ وعـلى من تلقي الذنب ؟ الطفولة كانت قاسية . الزمـــن اشتد عليك . طوفت بكل الآفاق وها أنت تعود : الابن الضال ، يهرع نحو أبيه ليفرق كفيه بدمع التوبة ، لكن الاب ، قـد فقد الذاكرة ونسي الابن . وهو الآن تراب يرقد في حضن تراب ــ والابن التائب يصرخ : لم تتركني ؟ (عنوان رواية تدور في عقلك منذ سنين . لم لم تبدأها بعد ؟) أما كان الاولى من رحلة الشعر ــ ضيعت في كتاب واحد عنـــه خمس سنين ، حبست شبابك في سجـن لا تدخله الا أوزان الشعر وكلماته ، هل كان الامر يساوي هذا الجهد؟ أم انك تهوى دوما أن تلعب دور ضحية ، حتى لو كـان الجلادون هم الشعراء ؟! هل هي مأساتك وحـــدك ؟ أم سحرت « كيركه » بحارة جيلك في سفن الفـن كمـــا سحرتك ؟ أما كان الاولى من هذه الرحلات أن تعلم أميا واحدا ؟ وهل تنسى ان أمك ماتت وهي أميـــة ــ تذكر تعبك أياما وأسابيع لتحفظها انا أعطيناك الكوثر ! ــ هـل تنسى أن شقيقتيك ما تزالان عاجزتين ــ كما يقال ــ عن تمييز الالف من كوز الذرة ؟ وأين تهرب من كلمة ذلك الذي زار بلادك (٤) ؟ سارع اليه كهنة الثقافة ــ وكم انبهرت مثلهم بكل جديد ــ فقال ما معناه : لو كنت مكان المثقف عندكم لاخذت طباشيرة ولوحا اسود وهرعت الى الريف لتعليم الأميين. وها هي الهاوية تتسع بين الكاتب والقارىء ولا تضيق . ونحن نواصل كتابة الرسائل المفتوحة الى بعضنا . لا نكفّ عن الصراخ من ذنبنا وخجلنا من عـار الامية . ومع ذلك لا نفعل شيئا . (أين اتحادات الادباء لتوجه قوافلنا نحو الريف ؟) هل نعزي أنفسنـا بأجيال أخرى ــ قد تأتي أو لا تأتي ــ تتذوق عندئذ أشعارنـــا المترفة وعباراتنا الرنانة ونظرياتنا المتعاليـــة وقصصنا ومسرحياتنا التي تفرغ فيها مشاعرنـا المذنبـة ؟ عـزاء يستحق البكاء ! فابك اذن على حائط مبكاك ..

* * *

وهبطت الى المتاهة كما هبط تيسيوس (يا للاسماء الصعبة .. لو كنت أدرى بتراثك لوجدت أسماء أرحم !) متاهة الحكمة التي ضاعفت حمـــاقتك .. في كل ركن عجوز أشيب ثرثار . وخيوط المذاهب كثيرة ومعقدة . تخرج من نسيج عنكبوت لتقع في نسيج عنكبوت . مـن طاليس الى هيدجر وأنت تقرأ وتتابع . تجعد الجبيـن واكفهرت الملامح . والشعر شاب فوق السالفين . وأنت تتجسس لكل رأي وتتأثر بكل صوت . تفرّق نفسك على خبزهم الجاف لكي يبلعه الناس . يقولون لك : أنت تكتب الفلسفة بقلب شاعر . أنت تحولها أدبا . هل يعزونك أم يجرونك من أنفك كما جرّ فاوست تلاميذه عشر سنين : سموه الاستاذ وسموه الدكتور ، فاكتشف انه لا يزال هو الاحمق المسكين ، واننا عن معرفة أي شيء عاجزون ! وها هم يسمونك الاستاذ ، ينادونك حضرتك وسيادتك . (لكن من يقف جوارك . من يشعر بك) . هنـاك تجلس كصنم بوذا المسكين . وبين جدرانك الاربعة أبكم أخرس كالبوم . ويرونك ــ حين تناقش أطروحة ــ في مسوح الحكماء المملين . ويثرثر صوت يخرج منك فتنكره حين تفاجأ به . وتود لو انك تخرج من جلدك ، تدخل جسـدا آخر ــ أبهى وأصح ــ أو أن تجري عريانا كالمذعور . لكن الدور يمثل فوق المسرح . سيظل يمثـــل حتى تنفجر وتخرج منه الى قبرك أو للنور . (أيتها العين الواسعـة السوداء . تابعت صعودي نحو الواحد وأنا اقرأ أفلوطين. هل أحسست بأني أتمنى أن ألقي السلّم كي أصل اليك ؟) واكتشف انك تـــورطت . أنت ونحن وهم متورطون . تورطت في جسد فرض عليك ، في عصر وبيئـــة لـم

تخترهما . يقولون وتصدقهم أحيانا : مصيرك بيديك ، فاقبض عليه ! حياتك من صنيعك ، فوجه دفتها بنفسك. في هذا الزمن وجدت وهذا الركن من العالم . فواجه الموقف وتحدّ المشكلة ! وتدق كلمات التحدي والكفاح وسائر الطبول الضخمة . وحين يجن الليل تقول : أنا مع ذلك في ورطة ! وتناجي نفسك : لو خيرت لكنت اخترت، أن أصبح شجرة ، أو أتقمص قطة ! (فالشجرة تلقي ظلا ، للتائه والحيران ، تعطي خشبا للبردان ، فاكهة أو خبزا أخضر للجوعان ــ والقطة متوحدة ، متكبرة تعشق سر الانجم والكتمان !) وتكتشف انك ضيعت الخيط . و « أريادنة » لم تمسك بطرفه ولم تنتظرك يوما على باب المتاهة .

وتواصل ثرثرتك ودموعك تجري في صمت . والسنة الدراسية على الابواب . ونفسك داخل المتاهة تبحث عن حائط مبكاك ..

***

وحيدا تذهب . وحيدا تجيء . (في الليل ، على فراشي ، طلبت من تحبه نفسي . طلبته فما وجدته) . آلاف الليالي ، مكورا كالجنين في بطن أمك ، تمد أكف الجوع اليه . تتعرى ، من يغطيك . يسعل صدرك يتفجر بالربو ، تتشنج معدتك وأمعاؤك ــ بالمرض المصري الازلي ! ــ من ينعطف عليك ، من يطعمك ويسقيك . يا جوعا أبديا للانثى والام ! ومنذ تخطيت الاربعين وأنت تخاف اللصوص ــ في الظلام تتربص الاقدار . والسماء تمطر الكوارث كل يوم . وصفحة الحوادث قضاء ينزل على الراس مع كل افطار . ضيعت الحبيبة فضاعت الزوجة والابناء والاحفاد ، ضاع الآباء وضاع الاجداد ، ضاع الماضي والحاضر والمستقبل . صرت ترابا ، عدما ، هاوية معتمة في لحظة . لحظة رحت لخطبتها فانعقد لسانك ، شلّ القلب ، أطبق فوق الشفتين الموت . (كل سنة أو سنتين تراها صدفة ، في منعطف طريق أو عند عبورٍ شارع ــ أن ساء حظك لم تر الا ظهرها ، فاتتك عيناها السوداوان النافذتان كحد السيف ، اللامعتان كسحر الموت ــ في يدها طفلاها . كان من الممكن أن يكونا منك . وحين اكتست السواد تقدمت . لكن النجم المنحوس هناك . ونجم الحظ بعيد عنك . تتحسر : آه لو كانت ، لو كنت وكنت وكنت .. وتمضي مسرعا الى مسكنك . تضع المفتاح في الباب . تتحاشى عيون المتطفلين . تطالعك سدود الكتب كحيوانات منقرضة . تتفرس فيك عيون الاموات ــ الاحياء ، طالت وقدتهم في كهف الورق المصفر ! وتدفن رأسك بين يديك . في بحر الحزن الاسود تغرق سفن العمر . ويوم سلمت عليها ــ للمرة الاولى أيها الريفي الرومانسي ! ــ صرت شعاعا ، عصفورا وفراشة . وحفرت التاريخ على الحائط ، ومعه كلمة نيتشه : حب القدر ــ ما زال الحفر هناك . يشبه شاهد قبر الغرباء ، في أرض الغربة : « أيها العابر ، قل لمواطنينا في اسبرطة : هنا نرقد مقتولين ، وما زلنا في الموت لوصاياها أوفياء » (٦) .. ما أشبهك بنيتشه . كم أحببته : ثورته ، خيبته ، وجنونه . والتسليم . هل نملك الا التسليم ؟ (في أواخر حياته ، بعد أن أطبق عليه ليل الجنون ، لم يعد يعرف أنه نيتشه . تنظر أخته اليه فلا تملك أن تحبس دموعها . ينظر اليها ويقول : لم تبكين؟ ألسنا سعداء ؟!) واللحظة كانت مسؤولة . لم تتركها تمضي وتفرّ ؟ لحظة عجز عن تصميم في وجه الحب ــ الموت . عبرت لن ترجع أبدا . لم تمسكها من خصلات الشعر الذهبي . كانت تدعوك وتبتسم لك : لم احجمت ؟

وتجيء الموجة بعد الموجة في طوفان الجري وراء الرزق ، وراء الخبز المر ، مغموسا في أوعية الملل ، اليأس ، القبح ، الذل . لكن اللحظة لا ترجع أبدا . أهي فكرة ثابتة تنام على فراشها المريح ؟ عزاء للنفس وتبرير ؟ هل تخدع نفسك ؟ تضع الدرع البراق على جثة فارس ؟ كي تستمتع بالحرية خلف السور الشائك ؟ تتلذذ ببكائك في كهفك ؟ يا للاوهام السهلة ! سهل ان تتهم النفس ، تعذبها ، فالتعذيب شريعة هذا العصر. لكن الفاجعة أمرّ . والمحنة اكبر من مشكلة الحب . فلكم أحببت وجربت . حاولت ان تكون البرجوازي الصغير ــ من يملك أن يخرج من جلده أو يتخلص من ظله ؟ ــ تقرأ الجريدة وتتابع أخبار النجوم والاغاني الجديدة ، تحرص على مسلسل الاذاعة والتليفزيون ، تتحسر على أيام الخير وتقول مع ذلك : غدا يتحسن كل شيء ــ لكنك لا تدري كيف ؟ ــ ومثله وضعت الخاتم في يدها (وضعته مرتين في يدين ، أبرأت ذمتك ككل مواطن صالح يؤمن بالله والوطن) وعندما أردت أن تضع يدها في يدك خلصتها منك . الموعد لم تحضره . كانت مع الآخر ترقص وتأكل من الشجرة المحرمة ــ على آدم المسكين وحده ! ــ كنت مملا والكتب مملة . وجه الحكمة لا يلمع مثل وجوه العملات الصعبة . والاخرى كانت أذكى وأمرّ . داعبت الطفل الراقد فيك وسخرت منه . أخذت منه الذهب المصنوع بعرق العمر . يا من تتلوى في محراب الفكر . أحرق كتبك قبل فوات العمر . أربط ربطة عنقك واسمع آخر أغنية في ما يطلبه المستمعون . واذكر حين يجن الليل ، انك وحدك . وحدك كالله الصمت أو الوحش المجروح المجنون . وحدك تتألم وتموت ، حتى لو كانت في أحضانك ملكة تدمر . واحمل حائط مبكاك الى القبر .

***

اللحظة ضاعت (هل يتسع العمر لعودتها ؟ هل يرجع دولاب الزمن الدوار فتظهر لك ، تبتسم كنجم صاف خلف سحاب الدمع المر ؟) عبثا تجمع عنها أكوام المعلومات ، تشغل نفسك بالزمن القاسي . ها أنت تحاضر عنها منذ سنين . تهتف أحيانا : ما دام القلب يدق فلا

يأس ! فاللحظة فاكهة تنضج في موسمها . حين يحين أوان النضج . اللحظة ـ سر الوهج الخالد تحت تراب الفانين ـ تحتاج الشمس ، الريح ، المطر ، سنينا بعد سنين . لا تيأس أبدا ، حين تزيد المحنة يأتي المنقذ . (عنوان كتاب بين يديك ، عن افلاطون : هذا المنقذ يخرج من كهفه . يترك كهف الاشباح المسجونين لنور الحق . فمتى يخرج منه ؟ أم خرج ولم يرجع بعد ، ليفك قيود السجن وأكل العيش ؟!) تهتف بقلوب بكر : عيشوا اللحظة ! لحظة الحسم والقرار والاختيار . لحظة التحدي والفعل الحر . بها يواجه الفرد مصيره ، والشعب قدره . من يخذلها ، من يهرب منها ، من يحجم عنها يبقى مدحورا أبد الدهر . هذا قانون الزمن وسر التاريخ . من يتحدى الموت يعيش ! من يحيا الموت يكون ! كلمات ضخمة . (أحيانا تتحقق ، تتجسد ، تنقذ قردا أو شعبا يفرق . أحمد ربك انك عشت اللحظة . لحظة عبر أخوك الجندي الى سيناء . ما أعظمه وهو « يكرر » صيحة « بدر » . ما أكرمه وهو يلف حزام البارود على جسد أضناه الفقر ، كي ينسف ـ باللحم الدافىء ـ درع حديد متكبر . هل تتكرر هذي اللحظة في سيناء وغزة والجولان ؟هل تنقذنا الا لحظات الحسم الحر ؟ أم نشغل عنها ، نهرب منها ، نستثمرها في شيكات وشعارات ، في المستورد والبوتيكات ، في أفلام واذاعات ، في الجشع الذاهل عن لحم الجندي المسكين ؟) . أخشى ما أخشاه الآن : أن تأتي اللحظة وأنا أحتضر والفظ آخر انفاسي . أن تتقدم مني كالعذراء وتهمس : هل تذكرني ؟ ـ وأذكر عندئذ انني نسيت ، اني لم أكن انا نفسي . يقول قائل يعزيك :

ومن الذي حقق نفسه ؟ أين الذي رضي عنها ؟ حتى الذي أنجز الاعمال الكبرى ، في الفن أو الحياة ، هل رضي عن نفسه ؟ وربما قلت لنفسك : حقا لم أتم عملا كبيرا ، ولكن آلاف الصفحات التي كتبتها ـ يا للذنوب الثقيلة ! ـ لا تخلو من انفاسك . ترجمت كثيرا وانكرت نفسك . أليس هذا عطاء ؟ ألم تعش وتجرب كل كلمة وسطر ؟ وأسفاه . الطيبة جنت عليك . (في أيامنا يسميها الكذابون ضعفا ، كما يعدون الرقة عجزا والوداعة والادب جبنا ..) . البراءة والنقاء ظلماك (وكل ما فعلت أن حاولت البقاء نقيا أبيض مهما خضت المستنقعات وقذفت بالطين) . فنيت فيما كتبت ونقلت (صادقا تقول : ما أقله وأهون شأنه ! كم كانت هناك أعمال أخرى أجدر وأهم !) حتى أوشكت أن تتقمص أرواح الذين شغلت بهم . أسروك حتى كدت تصبح صدى لا صوتا ، ونسخة لا أصلا . أكانت « شهامة » اداء الواجب ، فريضة لغة نادرة شاءت الصدفة أن تطرق أبواب حضارتها وأدبها . ولم لم تستطع الجمع بين هذا « الواجب » وواجب آخر أكبر منه ؟ أهو ضعف الحيلة ، قلة الهمة ، غباء الطبع ، ذل الخبز اليومي ، لذة الانهيار بالآخر والغير ، غرور التلويح به في وجوه الآخرين ؟ ربي ، ماذا كان الامر ؟ المسألة ـ كما قيل بحق ـ نسبية ، والغرور لم يبلغ بك أن تصدق الثناء (في النهاية : ماذا تقوى الكلمة أن تفعل في مجتمع متخلف ؟) والشوكة ما تزال تدميك : لم لم تحقق نفسك أو بعض نفسك ؟ لم لم تستجب للحظة الخلق ؟ لم لم تصبر وتثابر ، وفي أجيال الرواد وأجيال معاصريك وجوه مضيئة تحبها وتسعد بها وتتعلم منها ؟ بالامس فتحت كراساتك القديمة ـ كدت تنساها في غبار الادراج ! ـ طالعت خواطرك وقلبت المشروعات (ـ عشرات القصص بدأتها ولم تتمها ، مسرحيات وروايات طويلة وقصيرة ـ) أين كنت ؟ لم جرفك التيار ؟ كم نحن اغنياء بالافكار فقراء في الاعمال (٧) ! يهزون رؤوسهم ويقولون : مترجم حساس وباحث جاد . وتطعن في القلب . وتدور دوامة التدريس . تطحنك الطاحونة (ترى كيف يواجه المحنة من هم أفضل منك وأعلم : جبرا ابراهيم جبرا وخليل حاوي وشكري عياد وغيرهم وغيرهم ، أم انك تهول كعادتك وتصارع شبحا لا وجود له الا في رأسك ؟!) . وفي النهاية لم تقول هذا الكلام ؟ لمن ؟ ألم يكن الاولى أن تصوره في مشاهد ومواقف وشخصيات ؟ أهي الغريزة الموروثة في تعذيب الذات ؟ الا يجدر بك أن تبدأ السير على طريق الثقة والاطمئنان ؟ أتبذل وعدا ؟ أتحاول أن تنزع خيطا من عقدة الصمت ؟ ومن تهمه دموعك على حائط مبكاك ؟

كان الزمن قاسيا . عشت الزمن الاسود . الضوضاء حاصرتك والازعاج طوقك وأطبق عليك . (الهذا آويت الى كهفك ، وجعلت من تراث الانسانية منفاك ؟) الجهد كان قليلا والحيلة ضعيفة . الشعارات تنطلق وتدوي .

مؤلفات
د . نوال السعداوي

- امرأتان في امرأة
- موت الرجل الوحيد على الارض
- امرأة عند نقطة الصفر

قريبا

- أغنية الاطفال الدائرية

منشورات دار الآداب

رياح الجديد والغريب تعصف. الانبهار بالمولدات والعجائب يذهل النفس عن ذاتها (أنت أيضا شاركت فيه . هل تقبل توبتك الآن ؟) . البطولات الزائفة والصيحات الكاذبة وتعليمات كهنة الايديولوجيات « ينبغي ويجب ولا بد » سحقت براعم المواهب المتفتحة وشتتت أوراقها وأرعبت عصارتها الحية وسلطت عليها سموم الادانة (بعضها سكت ، بعضها اتجه للمسلسل وأكل العيش ، بعضها لاذ من جحيم الضوضاء الى قاعات الدرس ، أقلها نجح وصمد وأبدع أعمالا لا يبدعها الا الصبر ..) عشت الزمن الاسود . (عندما يظهر الطاغية الكبير يصبح الجميع طفاة صغارا ، من الحاكم الى الكناس وجندي الشرطة) (٨) لم تعذب ولم تعلق من قدميك ولم تركل أو تلطم على وجهك ، لكن بعض هؤلاء كانوا أقرب الناس اليك . وكتبت عن الطغيان (حتى أوشك أن يكون هو اللحن الاساسي في قصصك ومسرحياتك القليلة الشأن) . حتى الدراسات لم تخل ـ مع الحذر الواجب ! ـ منه . (لن تنسى لهذه المجلة فضل نشرها لمقالك عن الاحتجاج الذي ضاقت به مجلات بلادك في ذلك الحين) . حاولت ـ على طريقتك الهامسة الحيية ـ أن تواجه الازعاج والضوضاء . كتبت عن « صمت غوته » وعن السكينة التي قتلناها فقتلنا معها روح العلم والهدوء والنظر المتزن. كانت الحناجر أقوى من العقل (هناك الآن بصيص أمل في ان كفة العقل والعلم بدأت ترجح . لكن هل اختفت من حياتنا الاصوات العالية والادعاءات المدوية والعنتريات الزائفة ؟ أليس من واجبنا ـ نحن الكتاب ـ أن نقاومها ونخمد أنفاسها ؟ يتردد في سمعي الآن صوت بحّ من الدعوة للعلم ، للفكر المنتج عملا ، للنظر الموضوعي الخالص من اضطراب العواطف وزعيق الشعارات وبريق المطلقات والتعميمات ـ وبالجملة من الكذب والضوضاء التي كادت تصبح علامة عربية مسجلة (٩) . (والنتيجة : ملايين ملايين اللاجئين والمشردين ، والادعياء والمتبجحين ، والعاطلين والمتسولين . والخطر المحدق بملايين أخرى . والخطر المحدق أن نصبح « كفثاء السيل » ـ أن تنقرض حضارتنا ، نصبح مجدا فات ـ هل عرب أنتم ، هل عرب أنتم ، هل عرب ...) (١٠) . أعرف انني أسرف في المبالغة ، ان شبح الانقراض ـ الذي خيم عليّ سنين طويلة وجسمته أمامي قراءات في فلسفة التاريخ ـ قد بدأ يزول . ولقد عشت ـ بحمد الله ـ حتى رأيت مواجهة الصمود في اكتوبر ـ رمضان ، ولمست أبواب الحرية تواربت ، والاصوات تردد شعار العلم والايمان (ولا بد من الصبر والعمل المشترك حتى يصبح سلوكا حيا لا مجرد شعار) . لماذا أستطرد ؟ ألأجد تبريرا ؟ الأفضح ضعفي وعجزي أنا وكثير من جيلي ؟ ألأقول للمواهب الشابة : ثابروا على الاعمال الكبيرة ، اصمدوا لمعرفة الذات ، فمعرفتها والصبر على اكتشافها والدفاع عنها في وجه كل ما يشتتها هو العبقرية نفسها . ومن أنا حتى أقول هذا أو أدعو اليه ؟ كيف يعطي الشيء فاقده ؟ هل يشاركني أحد في ألمي ، هل يحسّ به ؟ أهو اعتراف ، ولمن ؟ ولماذا اعلنه في هذا المكان ؟ الم يكن من الممكن ان استغل كرم هذه المجلة في شيء انفع ، وقد سبق لها أن أكرمتني ورعت بعض بذوري الفقيرة التي أقلب الآن في حصادها المرير ؟ هل أعدتني « البطولة » التي يدعيها الكاتب حين يرتدي مسوح النبي والكاهن والمعلم والرائد ؟ أم أصابني ـ دون أن ادري ـ المرض الذي حذرت منه كثيرا حين تكلمت عن التواضع والاعتدال ، حين جعلت مثلي الاعلى ذلك « البطل » الصيني المسكين ، ذلك الحكيم الطاوي الذي حارب معركته وحقق الانتصار ، ثم استقل مركبا خفيفا واختفى عن الانظار ، أنظار الذين وعدوه بنصف المملكة هدية وانتظروا تلاحتفال به ؟ رب لم هذا التناقض كله ؟ هل آن أن أخلص نفسي من هذه المناجاة وأعبر بالصورة لغة الفن ؟ أم يمنعني أكل العيش وضعف الحيلة ؟ أنتم يا من ستظهرون بعد الطوفان الذي غرقنا فيه ، فكروا عندما تتحدثون عن ضعفنا ، في الزمن الاسود الذي نجوتم منه ، واذا رأيتمونا نبكي ، فاذكرونا .. وسامحونا (١١) .

* * *

« الضعيف هو الغبي الذي لا يعرف سر قوته ، وأنا لا أحب الاغبياء » (ص ٢٤٨ من هذا العمل الذي أمهد لمقال ينشر عنه) . هنا أجد نفسي امام عمل رائع يكشف لي اليوم ـ وبعد كتابته بحوالي عشرين سنة ـ عن معاني وايحاءات جديدة ، شأنه شأن كل فن عظيم . كما أجد نفسي أمام فنان لم يكف عن التجربة والريادة والمغامرة ، هو بالنسبة لي (وربما لكثير من جيلي ، وان كنت لا احب التعميم ولا التورط في الكلام نيابة عن أحد) منارة شامخة ترسل ضوءها الهادي لسفينة المصير العربية ، ولقوارب الموهوبين الصغيرة التي تتلمس طريقها في الظلمات . هذا رجل عرف نفسه ، سر قوته . كجبل المقطم بقي صامدا يطلّ ـ بجبهه وحزنه الجليل ـ على المدينة العتيقة المضطربة بالفقراء والمقهورين والمتسولين والفتوات . كتب ما كتب ليمحق الفقر والقذارة والتسول والطغيان ، لتختفي الحشرات والذباب والنبابيت . وبشرنا بالسحر ـ العلم ليخلصنا من قهر الفتوات وكذبهم ـ والفتوات في كل مكان ، فهل آن أن يختفوا ؟ ـ ومن الزيف والبطش والشكل ـ وهو في حكايات الرباب كما هو في دعاوى المتبجحين وبلاغيات الهتافين ، حتى كدنا نحن العرب نصير الفاظا تمشي وتأكل وتنام ـ هل نقرأ هذا العمل من جديد ؟ هل نأمل ـ بعد أن توفر شيء من الحرية التي تكفل الهدوء والاتزان والموضوعية ـ أن نحاول قراءته بعيدا عن التشنج والخوف ؟ هل ندرك الآن انه كان رؤية بصيرة لتصحيح الثورة ومحاولة للمزج بين العلم والايمان الذي أصبح الآن كلمة على كل لسان (راجع حديث

نجيب محفوظ الاخير في مجلة الدوحة ، العدد ٢٢ ، اكتوبر ١٩٧٧ ، ص ١٣٦ ـ ١٣٧) . هل نطمع في قدر كاف من الحرية الباطنة التي تسمح للاديب بتناول مادته من التاريخ الديني أو الاسطوري فيتصرف فيه كما يشاء له فنه وضميره (والفنان الحق ضمير العالم ، ميزان التاريخ) مثلما يحدث في كل بلاد الله فلا يرتفع اصبع اتهام ولا يجمح رأي ولا يتطاول ثرثار ؟ ـ هذا ما سوف تتكفل به الدراسة الآتية (١٢) ، لعالم ألماني يجمع بين النادرين : الحكم الموضوعي النزيه ، والقلب المحب المتعاطف . وبمثل ما اهدي المقال لهذا الاستاذ الذي كان له ـ ولا يزال ـ أكبر الفضل علي (علمني الالمانية منذ اكثر من عشرين عاما ، وهبني منحة درست بها خمس سنوات في بلاده ، أخذ بيدي في ساحات أدبها وفكرها ، شجعني في أزماتي ، أحبني وأحب بلادي وتراثي ولغتي حبا لم أجده عند انسان آخر ، دعانا ـ أخي وصديقي يوسف الشاروني وأنا ـ في صيف العام الماضي الى برلين ـ التي يرأس المعهد الاسلامي بها ـ فأكرمنا كرما لا نتصوره أو نحلم به) ، وأهديه كذلك للمجلة الشجاعة التي اتسع صدرها لابناء جيلي الذين أصبح اكثرهم الآن روادا تتردد أصواتهم المتميزة ، كما اتسع لبعض محاولاتي الساذجة على مدى عشرين سنة أو يزيد . (وأين أجد مجلة تتلقى دموعي وتتحمل حائط مبكاي ؟!) .

كان من المفروض أن أقول شيئا عن الآداب والآداب الاجنبية . لكن الاستطراد يعفيني الان من هذا الواجب الاليم . هل يؤذن لي أن أختم بالتحية والتهنئة القلبية ؟ ولكن هذا شيء بديهي . فلمن أتجه بهما لغير هذا المنبر الشجاع الذي صاحب آلامنا وأزماتنا ، وصبر على صراخنا وضجيجنا ـ الشعري والنثري ! ـ وكان من آثار شجاعته نشر هذا العمل الفني الذي صودر في بلده . ومن يستحق التهنئة غير هذه الساحة الادبية التي وقفت دائما تحارب من أجل وحدة العرب وتكافح لتعليمهم وفتح عيونهم على كل ما هو ثوري وانساني وجديد في الفن والفكر والسياسة والاجتماع ؟ أينتظر مني أن أضيف شيئا من النقد وأملا في المستقبل ؟

ليتها تسمح لي بتحذير وأمل : تحذير من الانبهار بالجديد وقد لا يستحق في بعض الاحيان هذا الانبهار ، وأمل في المحافظة على رسالتها العربية المجردة الخالصة ـ التي حافظت عليها بغير شك حتى الآن ـ وعدم تقديم تنازلات لاتجاهات « ايديولوجية » عارضة سواء جاءت من يمين أو يسار ، المزيد من النقد العلمي مهما تكن قسوته ـ لانه يعبر عن الحب الصادق اكثر مما تعبر عنه المجاملات ـ التوسع في الاعداد الخاصة عن أدب الاخوة العرب الذين يخجلنا الا نعرف عنهم شيئا أو لا نكاد ـ أدب الشمال الافريقي والسودان واليمن ودول الخليج ... الخ ـ بجانب الاعداد الخاصة عن القضايا الحية الملحة (وكم قدمت من أعداد ناجحة) .. الاتجاه الى الاهتمام بنشر الاعمال الحية من تراثنا بأقلام متفتحة حية ـ فما أحوجنا والجيل الشاب من بعدنا لمثل هذه الاعمال على ضوء معاصر وجديد ! ـ ومن تراث الانسانية كلها من شرق وغرب، فالعربي في موقفه الراهن في وجه تحديات تكون أو لا تكون ـ في حاجة لمزيد من الوعي والعلم ، اكثر من حاجته لبعض الاسماء البراقة التي اهتمت بها « الآداب » وانطفأت الهالات المحيطة بها او اوشكت : (ماركوز على سبيل المثال !) . فلتعش « الآداب » ، وليهنأ صاحبها وقراؤها ، وليغفروا لصاحب السطور تحيته الدامعة السخيفة !

د. عبد الغفار مكاوي

القاهرة

اشارات

(١) هو الصديق الناقد سامي خشبة .

(٢) هو كتاب تاو ـ تي ـ كنج (الطريق والفضيلة) للحكيم الصيني لاو ـ تسي .

(٣) هو الكاتب الدارس فاروق خورشيد .

(٤) هو الفيلسوف سارتر .

(٥) نشيد الانشاد ، الاصحاح الثالث .

(٦) ابيجرام منسوب الى سيمونيدز (من حوالي ٥٥٦ الى حوالي ٤٦٨ ق.م. ـ شاعر اغريقي من جزيرة كيوس) .

(٧) عن قصيدة لهلدرلين .

(٨) رأي للكواكبي في « طبائع الاستبداد » .

(٩) هو صوت أستاذنا زكي نجيب محمود الذي يدعو للتفكير العلمي وحضارة العلم لا حضارة الالفاظ منذ حوالي نصف قرن ، وبخاصة في كتبه الاخيرة .

(١٠) عن قصيدة لمظفر نواب .

(١١) بتصرف عن قصيدة برشت المشهورة : « الى الاجيال المقبلة » . وأود الاشارة الى خواطر رائعة لفرسوا باسيلي نبهني اليها صديقي الفنان ضياء الشرقاوي ، وقد نشرت في مجلة «الكاتب» القاهرية تحت عنوان « تساؤلات لخدش كبرياء الخداع » ، العدد ١٨١ ، ابريل ١٩٧٦ ، ص ٥٢ ـ ٦٤ .

(١٢) نشرت الدراسة في مجلة « مراسلات الشرق » ، العدد ١٣ ، دون تاريخ (حوالي ١٩٧٥) ، في عدد خاص أهداه الى ذكرى المستشرق أ. آبيل نخبة من تلاميذه وأصدقائه ، تحت عنوان « امشاج اسلامية » وصدر ضمن منشورات مركز دراسة مشكلات العالم الاسلامي المعاصر بمدينة بروكسيل . واليك العنوان الاصلي للدراسة وبيانات النشر لترجع لها ان شئت :

I . Steppat : Gott , die Futuwwât und die wissenschaft . zu Najib Mahfuz : Aulâd Hâratnâ . in : Melange d'islamologie , dediés à la memoire de A . Abel par ses Collegues , ses élèves et ses amis , Volume II , Correspondance d'orient No . 13 . Publications du centre pour l'Etude des problèmes du Monde Musulman Contemporain , Bruxelles ,P . 375 - 390 .